obeikandl.com

الأسطورة والدين

الفصل الثانى

obeikandl.com

تمهيد

إن أبرز ما يميز الفكر الأسطورى هو ارتباطه بالدين، فقد كانت الأسطورة فى أبسط أشكالها وأوضح مظاهرها فطرية تتضمن بعض الدوافع التى تعد بمثابة إرهاصات لمثل دينية عليا. فالأسطورة منذ البدء دين بالقوة، أو هى ديانة بدائية. ومن ثم تحمل طابع القداسة، فالحقائق الأسطورية حقائق مقدسة تشير إلى الاعتقاد بقدسية الموضوع الأسطورى [1]. ومن هنا جاء تعريف الأسطورة بأنها:

"حكاية أو قصة مقدسة ذات مضمون عميق يتعلق بالكون والوجود وحياة الإنسان".

ورغم أن القدماء لم يطلقوا على حكاياهم المقدسة اسماً معيناً ولم يجمعوها فى سفر واحد يفرقها عن بقية الحكايات الأخرى، إلا أنهم كانوا يميزون بدقة بين القصص الحقيقية التى ترتبط بالمعتقدات الدينية، والقصص الزائفة ذات المضمون الأدبى البحت. لقد أجاب أحد الهنود الحمر من قبيلة إيو- وا (فى أواخر القرن التاسع عشر) عن سؤال للباحث الميدانى الذى كان يستعلم منه عن أساطير قبيلته قائلاً: "إن هذه الأمور مقدسة ولا أريد الحديث عنها، كما أنه ليس من عاداتنا ذكرها إلا فى المناسبات الخاصة". وبعض القبائل يميزون بين نوعين من القصص التقليدية، وهما النوع الحقيقى والنوع الزائف. فهم يضعون فى مرتبة الحقيقة جميع القصص التى تتناول أصل العالم وهى قصص أشخاصها كائنات إلهية فائقة. ويأتى بعد ذلك فى المرتبة مباشرة الحكايات التى تروى المغامرات التى قام بها البطل القومى، وهو عادة فتى متواضع النشأة ما لبث أن أصبح مخلصاً لشعبه فأنقذه من الوحش الهائل، وانتشله من الجوع والفقر. ثم تأتى القصص التى تتعلق بالسحر، وكيف اكتسب هذا الساحر أو ذاك قواه الخارقة. أما القصص الزائفة، فهى القصص ذات المضمون الدنيوى، وتدور حول مغامرات وأعمال شخصيات غير مقدسة [2].

ولا شك، فإن صفة القداسة التى تتمتع بها "الأسطورة" يجب أن تكون الفيصل الأساسى فى عملية التعرف على النصوص الأسطورية لأى ثقافة وتمييزها عن بقية النصوص الأخرى. فهناك أنواع كثيرة من الحكايات التقليدية تختلط عادة بالأسطورة مثل الخرافة. فبعض الباحثين مالوا إلى الاعتقاد بأن الآلهة التى تظهر فى الأساطير عادة تتحول فى الحكايات الخرافية إلى مجموعة من الكيانات الأرضية الخارقة منها على سبيل المثال: الغول والجن والعنقاء .. إلخ، وما يزال فيها ما يقوم مقام الطقوس الدينية البدائية؛ وفيها بكل تأكيد ضروب معقدة من السحر[3]. ولكن هناك فروق واضحة بين الأسطورة والخرافة، فالخرافة تقوم على عنصر الاندهاش وتمتلئ بالمبالغات والتهويلات، وتجرى أحداثها بعيداً عن الواقع حيث تتحرك الشخصيات بسهولة بين المستوى الطبيعى المنظور والمستوى فوق الطبيعى؛ وتتشابك مع كائنات خارقة – كما سبق القول – مثل العفاريت والأرواح الهائمة، وقد تدخل الآلهة مسرح الأحداث أيضاً فى الخرافة، ولكنهم يظهرون هنا أشبه بالبشر لا كالآلهة سامية متعالية كما هو شأنهم فى الأسطورة. ومن هنا، فإن الحدود بين الخرافة والأسطورة تكاد تكون واضحة، وقد تشبه بعض الخرافات الأساطير فى الشكل والمضمون إلى درجة تثير الالتباس والحيرة؛ فلا نستطيع التمييز بينهما إلا باستخدام المعيار الرئيسى الحاسم ألا وهو معيار القداسة[4].

فالأسطورة هى حكاية مقدسة يؤمن أهل الثقافة التى أنتجتها بصدق روايتها صدقاً لا يتزعزع، ويرون فى مضمونها رسالة أبدية موجهة للبشر، فهى تقوم على حقائق خالدة وتؤسس صلة دائمة بين العالم الدنيوى والعوالم المقدسة. أما الخرافة فهى تقص أحداثاً لا تُلْزِم أحداً بتصديقها أو الإيمان برسالتها.

ومن الحكايات التقليدية التى يصنفها البعض ضمن الأساطير الإغريقية، بينما ينبغى تصنيفها ضمن الحكايات الخرافية، تلك التى تدور حول الأبطال الخرافيين من الرجال وأنصاف الآلهة، أمثال "بيرسيوس" و"جيسون" و"ثيسيوس"، فهذه جميعاً حكايات غير مقدسة ولم يتداولها الإغريق كأساطير تحمل رسالة

أبدية من أى نوع لبنى البشر. وإذا بحثنا عن أمثلة أكثر قرباً من ثقافتنا العربية، وجدناها فى عدد من الحكايات التقليدية مثل "سيف بن ذى يزن" والأميرة "ذات الهمة"، وعدد لابأس به من حكايات ألف ليلة وليلة.

إن الصلة التى تربط بين الأسطورة والخرافة، تخلق بينها حالة تبادل، فقد يلتقط الكهنة – فى فترات ضعف المؤسسة الدينية وانهيار المعتقدات الراسخة – حكاية خرافية ويضفون عليها مضامين دينية لها طابع القداسة، وبالمقابل فقد تؤدى تغييرات عميقة فى بنية المعتقدات الدينية إلى زوال القداسة عن أسطورة ما وهبوطها إلى مستوى الخرافة (5).

والأسطورة باعتبارها حكاية مقدسة تتصل بالتاريخ، فهى سجل لما حدث فى الماضى. والتاريخ كما يعتقد البعض هو وليد الفكر الأسطورى. والحقيقة أن الصلة بين الأسطورة والتاريخ صلة قوية تحتم ضرورة الاستفادة من المادة الأسطورية كمصدر للمادة التاريخية. فالأسطورة تعبير أدبى عن أنشطة الإنسان القديم الذى لم يكن قد طور بعد أسلوباً للكتابة التاريخية يُعينه على تسجيل أحداث يومه، فكانت الأسطورة هى الوعاء الذى وضع فيه خلاصة فكره؛ والوسيلة التى عبر بها عن هذا الفكر وعن الأنشطة الإنسانية المختلفة التى مارسها بما فيها النشاط السياسى والدينى والاقتصادى. وهناك حقب زمنية طويلة يعتبر الأدب مصدرها الرئيسى، ومنها تلك الحقب التى وُصفت بالحقب الأسطورية من عمر الشعوب، لأن الأسطورة كانت على الأرجح الوسيلة الأساسية للتعبير عن النشاط الإنسانى فيها. ولا تعنى عبارة الحقب الأسطورية خلو هذه الفترات من التاريخ الواقعى، ولكنها تعنى فى المقام الأول الاعتماد على الأسطورة والوصف الأسطورى للأحداث التاريخية بما يناسب البناء العقلى لإنسان تلك الحقب الموغلة فى القدم، وهو بناء عقلى له فكرته الخاصة عن الزمان والمكان واحساسه الخاص بهما (6).

* * * *

معنى الأسطورة

ليست "الأسطورة" من الكلمات المستحدثة فى اللغة العربية، والمضامين التى استوعبتها هذه الكلمة فى الاستخدامات الحديثة تستند إلى مضامينها القديمة. وتفيدنا المعاجم العربية بأن كلمة "الأسطورة" قد جاءت من السطر وهو الخط أو الكتابة، وجمعه أسطار، وجمع الجمع أساطير. ويقال سطر الأكاذيب وسطر علينا: أى قص علينا الأساطير. والأساطير هى الأباطيل والأحاديث العجيبة. ونعثر على أول استخدام للكلمة فى القرآن الكريم حيث جاء فى (سورة الفرقان آية (5)) قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝﴾ [7].

وهذا الاشتقاق لكلمة "أسطورة" فى اللغة العربية يقارب اشتقاقاتها فى اللغات الأوروبية، فكلمة Myth فى الإنجليزية والفرنسية وغيرها، مشتقة من الأصل اليونانى Muthas وتعنى قصة أو حكاية. وكان "أفلاطون" أول من استعمل تعبير Muthologia للدلالة على فن رواية القصص، وبشكل خاص ذلك النوع الذى ندعوه اليوم "بالأساطير" ومنه جاء تعبير Mythology المستخدم فى اللغات الأوروبية الحديثة. أما فى لغات المشرق القديم، فلا نعثر على مصطلح خاص ميز به أهل تلك الحضارات الحكاية الأسطورية عن غيرها. وتظهر فهارس النقوش الكتابية التى تعوّد الكتبة السومريون وضعها لتصنيف محتويات مكتباتهم. ولم يميز السومرى النصوص الأسطورية عن غيرها ولم يدرجها فى تسلسل خاص، بل تركها موزعة بين النصوص الأخرى التى تدور حول موضوعات شتى مثل الحكمة والأمثال والوصايا وما إليها[8].

ومن هنا، يمكن القول أن القدماء لم يضعوا لأنفسهم تمييزاً لغوياً دقيقاً لتلك المجموعة من الأعمال الأدبية التى نصنفها الآن تحت عنوان "الميثولوجيا" ولا هم اهتموا بتمييزها عن بقية الأجناس الأدبية الأخرى وذلك رغم تأكيدهم على اختلافها وخصوصيتها. وهذه المشكلة ستبقى قائمة ما لم يتم الاتفاق على معايير دقيقة لتمييز النص الأسطورى عن غيره.

وللأسطورة عدة معان هى على النحو التالى :-

(1) من حيث الشكل، الأسطورة هى شكل من أشكال الأدب الرفيع، فهى قصة تحكمها قواعد السرد القصصى من حبكة وعقدة وشخصيات. وغالباً ما يجرى صياغتها فى قالب شعرى يساعد على ترتيلها فى المناسبات الطقوسية وتداولها شفاهة بين الأفراد وعبر الأجيال، كما يزودها بسلطان على العواطف والقلوب لا يتمتع به النص النثرى . ويذهب "جورج سوريل" G, Sorel (1847-1922) فى كتابه "تأملات العنف" إلى هذا المعنى فيقول :

> **"إذا بالغت فى الحديث عن التمرد والعصيان، ولم يكن لديك أسطورة تحرك بها قلوب الناس لم تستطع أن تحملهم على الثورة"[9].**

(2) هى قصة تقليدية بمعنى أنها تحافظ على ثبات نسبى، وتتناقلها الأجيال بنفسها عبر فترة طويلة من الزمن.

(3) ليس للأسطورة زمن، أى أنها لا تقص عن حدث جرى فى الماضى وانتهى، بل عن حدث ذى حضور دائم، فزمانها زمن ماثل أبداً لا يتحول إلى ماضى. إن الإله "تموز" Tammuz [10] الذى قُتِلَ ثم بُعِثَ إلى الحياة، إنما يفعل ذلك فى كل عام إذ يُقْتَل فى الصيف ويُبْعَث إلى الحياة فى الربيع. والإله "مردوخ" Marduk [11] الذى خلق الكون ونظمه فى الأزمنة المقدسة الأولى، إنما يفعل ذلك كل عام ومع بداية السنة الجديدة، حيث يقوم بإعادة خلق الكون وتجديده. وصراع الإله بعل Baal [12] مع الحية ذات الرؤوس السبعة وقتله لها، هو صراع دائم بين قوى الخير والحياة، وقوى الشر والموت. وعندما لا يكون للحدث الأسطورى هذا الطابع الدورى المتكرر الواضح، فإن مضمون الأسطورة يعبر عن حقيقة أزلية متغلغلة فى حياة البشر. فأسطورة خلق الإنسان من تربة الأرض ممزوجة بدم إله قتيل، هى تأسيس لفكرة الطبيعة المزدوجة للإنسان وتكوينه من عنصر مادى وآخر روحى. وحتى عندما تشير الأسطورة صراحةً إلى حدث فى الزمن ومحدد فى التاريخ، فإن

مراميها البعيدة تكمن خارج الزمن وتتخذ صفة الحضور الدائم. ونموذج هذا النوع أسطورة الطوفان الرافدية، فرغم أن السومريين قد اتخذوا حدث الطوفان – الذى أبلغت عنه الأسطورة – نقطة فى التاريخ يؤرخون بها لما حدث قبلها وما حدث بعدها، إلا أن فحوى الأسطورة لم يكن زمنياً بالنسبة إليهم، والطوفان الذى دمر الأرض من حولهم مرة هو نذير دائم بسطوة القدر وتحذير من الغضب الإلهى البعيد عن أذهان البشر [13].

(4) تتميز موضوعات الأسطورة بالجدية والشمولية، فهى تدور حول المسائل الكبرى التى ألحت دوماً على عقل الإنسان، مثل الخلق والتكوين وأصل الأشياء والموت والعالم الآخر.

(5) يلعب الآلهة وأنصاف الآلهة الأدوار الرئيسية فى الأسطورة، فإذا ظهر الإنسان على مسرح الأحداث كان ظهوره مكملاً لا رئيسياً.

(6) لا يُعْرَف للأسطورة مؤلف معين لأنها ليست نتاج فردى أو حكمة شخص بعينه، بل أنها ظاهرة جمعية تعبر عن تأملات الجماعة وحكمتها وخلاصة ثقافتها.

(7) ترتبط الأسطورة بنظام دينى معين وتعمل على توضيح معتقداته وتدخل فى صلب طقوسه.

(8) تتمتع الأسطورة بقدسية وسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم، فقد آمن الإنسان القديم بكل العوالم التى نقلتها له الأسطورة، وكان الكفر بمضامينها كفراً بكل القيم التى تشد الفرد إلى جماعته وثقافته، وفقداناً للتوجه السليم فى الحياة [14].

وبناء على ما تقدم يمكن القول، أن الأسطورة هى حكاية مقدسة ذات مضمون عميق ينم عن معانى ذات صلة بالكون والوجود وحياة الإنسان. وصفة القداسة التى يتمتع بها النص الأسطورى، يجب أن تكون الفيصل الأساسى فى عملية التعرف على النصوص الأسطورية لثقافة ما وتمييزها عن بقية النصوص.

❊ ❊ ❊ ❊

أنـواع الأسطورة

قسم علماء "الانثروبولوجيا" الأسطورة إلى أربعة أنواع :-

1ـ الأسطورة الطقوسية

وقد ارتبطت هذه الأسطورة أساساً بعمليات العبادة مهما يكن شكلها وطريقتها، وقد اهتمت برصد الجزء الكلامى من الطقوس قبل أن تصبح "حكاية" لهذه الطقوس، ويمتاز ذلك الجزء بقوى سحرية خفية حتى يتمكن منشده من أن يسترجع الموقف الذى يصفه. ونستطيع أن نقدم نشيد انوماااليش [15] Enumaelish الذى ينشده الكهنة مثالاً لهذا النوع. وقد ارتبط النشيد (أو الترنيم) بطقوس جنائزية فى عيد أول السنة عند البابليين حيث تمثل كل ملامح أسطورة الخلق[16].

ويجعل بعض الباحثين لهذه الأسطورة الطقوسية نظيراً عند المصريين ونقصد بها أسطورة "أوزيريس" Osiris ونسميها هكذا، لأنها متشعبة حيث تصف الكون وعملية الخلق وحياة الإنسان، فقد تقمص "أوزيريس" خصائص عدة آلهة، فهو إله الموتى وإله الأحياء فى وقت واحد، وهو فى الأصل كان تشخيصاً لفيضان النيل، ويمكن أيضاً أن يمثل الشمس بعد غروبها وهو بذلك يرمز إلى سكون الموتى. وهناك نصوص متأخرة توحد بينه وبين القمر، وكان المصريون يعتقدون أنه أبو الآلهة وأبو الماضى وأبو الحاضر والمستقبل أى الخلود [17].

ويرى "هوك" أن التشابه كبير بين أسطورة الخلق فى الأساطير المصرية القديمة وملحمة الخلق الآكادية (البابلية)، لكنه يبين – على سبيل المثال – أن "أوزيريس" الذى يموت بانتهاء زمن الخصب ويحيا مع عودته يجلس على كرسى القضاء ويقرر مصير الأرواح التى رحلت إلى العالم الآخر، فتبدو من هنا الصلة بطقوس "التحنيط". وثمة مواقف أخرى من الأسطورة تبرز تماماً عند الترتيل الشعائرى، ويصاحب هذا الترتيل النسوة وهن يضعن دمية ترمز لـ"أوزيريس" الممزق ويلقين بها فى نهر النيل وذلك إحياء لذكرى طرحه فى الماء داخل الصندوق. وفى

بعث "حوريس" (ابن أوزيريس) يلقى نشيد فيه أكثر من موضع للتعاويذ، فقد لدغ عقرب "حوريس" الطفل وهو نائم، وهنا تفزع أمه "إيزيس" وتهيب بالإله أن ينقذه.

وأسطورة البعث Eschatological Myth هذه لها أصول نُقِشَت فى نصوص التوابيت، ويرجع تاريخها إلى 2300 سنة قبل الميلاد، إلا أن هذه النقوش تختفى بعد ذلك ثم تعود إلى الظهور فى عصر الدولة الحديثة [18].

أما فى مجال الأسطورة الإغريقية فإنها تهتم بإضفاء جو من الخفاء والغموض المثير على أساطير الأقوال الطقوسية، فتسحر بذلك خيال الإغريقى. وقد انعكس هذا السحر الأسطورى على كثير من الأعمال الأدبية من شعر وقصص ومسرحيات، لكن غالباً ما تكون هذه الأسطورة حكاية أو قصة ممتزجة بأقوال وأشعار غامضة لا يقبلها سوى الخيال والعاطفة [19].

2ـ الأسطورة التعليلية

ويُقْصَد بها الأساطير التى سبقت إقامة العلاقات بين الأشياء، فالأسطورة من هذا النوع لها دور وظيفى فى تفسير وتعليل الظواهر، ولم تجد طريقها إلى الوجود إلا بعد أن ظهرت فكرة "وجود كائنات روحية" خفية فى مقابل ما هو كائن من الظواهر الطبيعية كالرعد وانفجار البركان وانشقاق الأرض. ويبدو أن طائفة من رجال الدين استطاعت أن توهم "الجماعة" بأنها على اتصال بهذه الكائنات الروحية، فوُجِدَ السحر وكان فى مبدئه إيماناً بقوى موجودة فى بعض الأحجار النفيسة أو التى تأخذ شكلاً مثيراً، حيث يفسح المجال للقول بأن روحاً تكمن فيها ويمكن استمالتها عن طريق تقديم القرابين والأضاحى [20].

ولقد قام "جيمس فريزر" بصياغة نظريته المعروفة حول أصل الدين وعلاقته بالسحر، على هذا المفهوم السابق فرأى، أنه قد مر على الإنسان عهد ظن فيه أن بمقدوره التحكم فى سير عمليات الطبيعة بواسطة تعاويذه وطقوسه السحرية. وعندما اكتشف بعد فترة طويلة قصور هذه الوسائل عن تحقيق غايتها،

تصور أن الطبيعة التى رفضت الانصياع له، واقعة تحت سلطان شخصيات روحانية فائقة القدرة، فتحول إلى عبادة هذه الشخصيات واستعطافها، واسترضائها بالأضاحى والقرابين لتقف فى صفه وتلبى له حاجاته. وبذلك ظهر الدين وتحول الإنسان عن السحر وحل كاهن المعبد محل ساحر القبيلة [21] يقول "جيمس" فى كتابه "الغصن الذهبى".

> **"إن السحر - فى صورته النقية الخالصة - يفترض تتابع أحداث الطبيعة بالضرورة وباطراد وبدون تدخل أى عامل بسيط روحى أو مشخص. وعلى هذا الأساس فإن تصور السحر يشبه تصور العلم الحديث إذ يرتكز النسق كله على الإيمان بانتظام الطبيعة واطرادها، وهو إيمان ضمنى ولكنه راسخ ثابت. فالساحر لا يشك مطلقاً فى أن العلل نفسها سوف تنتج دائماً المعلولات نفسها وأن ممارسة الطقوس المناسبة واشفاعها بالتعاويذ والطلاسم الملائمة يؤديان بالضرورة إلى النتائج المرجوة، إلا إذا حدث بالطبع أن تعرضت هذه الطقوس لتأثير تعاويذ أقوى منها مفعولاً فتنهزم أمامها. ولكن العادة أن الساحر لا يستعين بأى قوة أخرى أعلى منه ولا يطلب العون من أى كائن آخر لا يأمن تقلباته أو عناده ولا يذل نفسه لسطوة الآلهة والأرباب، ومع ذلك فإن قواه ليست بالقوى التعسفية أو المطلقة التى لا تحدها أية حدود، على الرغم من إيمانه هو بعظمتها وشدة بأسها، فهو لا يستطيع استخدامها إلا إذا توافق سلوكه مع أصول فنه أو مع ما يمكن تسميته بقوانين الطبيعة" [22].**

على أن فكرة استرضاء القوى العليا تقع خارج مفهوم "السحر" الذى نشير إليه (فهى تدخل فى نطاق الدين)، ذلك لأن السحر هنا علم أو منطلق علمى نحو الطبيعة. إن السحر والعلم يؤمنان بأن العالم لا تحكمه أهواء كائنات عليا، بل عدد هائل من القوانين التى تفعل فعلها بشكل آلى، قد يتعاون السحر مع كائنات روحانية تشبه ما لدى الدين، إلا أنه يتعامل معها بطريقته الخاصة التى تختلف عن الدين؛ ففى الطقوس السحرية لا يتوسل الساحر إلى هذه

الكائنات بل أنه يجبرها على تنفيذ مشيئته. وهنا نجد امتزاجاً بين السحر والدين ضمن نظام مختلط إلا أن مثل هذا التمازج ليس أصلياً بل طارئ، فلقد مر على البشرية وقت اعتمدت فيه على السحر وحده [23].

ويعبر عن هذا المعنى "جيمس فريزر" فيقول :-

"إن المماثلة بين التصورات السحرية والعلمية للعالم مماثلة قوية ومحكمة، ففي كلا التصورين يسير تتابع الأحداث بطريقة منتظمة ومؤكدة إلى أبعد حد، إذ تحكمه قوانين ثابتة بحيث يمكن التنبؤ بنتائجها وحسابها بدقة؛ كما أن عناصر المفاجأة والصدفة والعرض تكون مستبعدة تماماً من مجرى الطبيعة وأحداثها" [24].

ويعتقد بعض الباحثين أن الأسطورة التعليلية هي التي مهدت الطريق لفلاسفة اليونان إلى خوض غمار الفلسفة، فنجد من يقول أن التعليل الأسطوري كان بداية العلم قبل الفلسفة، وشارك السحر في المهمة قبل أن يرتبط بالدين؛ بحيث كانت الشعائر الدينية والسحرية تُمارس في وقت واحد وتردد الصلوات والتعازيم في صوت نفس المترنم، دون أن يبدو للمرء أي تناقض في هذا السلوك العجيب.

3ـ الأسطورة الرمزية

تعبر هذه الأسطورة عن مرحلة أكثر تعقيداً من المراحل التي قطعتها الأساطير الخاصة بالطقوس والتعليل، ولعلها أكثر قرباً من الأسطورة التعليلية بوجه عام، لأنها تعبر بطريقة مجازية عن فكرة دينية أو كونية. لقد عبر الإنسان من خلال اكتشافه الأسطورة الرمزية عن تجربته الانفعالية مع الكون، وهو باستخدامه للرمز – في هذه التجربة – لا يلجأ إلا إلى إنتاج بنية أدبية يحاول من خلالها إعادة النظرة إلى العالم على مستوى الرمز.

وفي الحقيقة، فإن كلاً من الفلسفة والعلم يقوم بمهمة اختزال تجربتنا مع العالم وتقديمها إلى الوعي، وقد تم تفسيرها وترتيبها. ولكن بينما يلجأ العلم والفلسفة

إلى العقل التحليلى الذى يجزئ العالم ثم يعيد تركيبه من أجل فهمه معتمداً فى ذلك على الاختبار والبرهان (العقلى والتجريبى على السواء)، فإن الأسطورة تضع الإنسان بكليته فى مواجهة العالم ويجميع ملكاته العقلية والحدسية والشعورية واللاشعورية، وتستخدم كل الرموز الممكنة من أجل تقديم رؤية متكاملة لهذا العالم[25].

وإذا قرأنا أسطورة "كرونوس" عن الإغريق لفهمنا ذلك على نحو أوضح، فهذا المارد Titan – وهو ابن "أورانوس" و"جيا" أى السماء والأرض – اعتاد أن يأكل ابناءه لأنه أنبئ بأن أحدهم سيكون أقوى منه وسوف يخلعه من العرش، ولهذا السبب كان يبتلع كل طفل يولد من ابنائه بمجرد ولادته. وبحيلة ما انقذ ابنه "زيوس" الذى صار كبيراً لآلهة الأولمب. وقد أصبح "كرونوس" رمزاً للزمن الذى لا يفنى، فى حين يفنى كل شىء [26].

وتدل الأبحاث الحديثة التى عرضت للفكر المبكر للإنسان أن مدى التشابه فى عمليات العقل البشرى، إنما يظهر فى مثل هذه الأساطير الرمزية. ولو اتخذنا حضارة مصر مثالاً على ذلك لرأينا أن المعنى الرمزى لأساطير "أوزيريس" يظهر فى أن الصراع الذى نشب بين "أوزيريس" و"ست" ثم بين "ست" وأخيه "حوريس" إنما هو مقابل لظهور ثلاث ممالك فى مصر: مملكة شرق الدلتا وكان يحكمها "أوزيريس" ومملكة غرب الدلتا تحت حكم "حوريس" ومملكة الجنوب أو مصر العليا وكانت فى حوزة "ست". وبنجاح "حوريس" فى قتل "ست" – لأنه قتل أباه ومزق جسده – تم توحيد الشمال والجنوب لأول مرة فى التاريخ. وعلى ذلك فإذا استطعنا – فى ضوء هذا التفسير القائم على وجود معنى حرفى وراء معنى أعمق – أن نقرأ مرة أخرى تراث الإنسانية الفنى، لتوصلنا إلى حقائق تفيد العلم والحضارة .

4ـ الأسطورة التاريخية

ويُقصد بهذا النوع من الأساطير، الأسطورة التى امتزجت بالتاريخ، أى التى تتضمن عناصر تاريخية ومجموعة خوارق تأخذ إطار الحكاية أو القصة. وتتعلق هذه

الحكاية بمكان واقعى وبأشخاص حقيقيين وتُنْقَل عبر الأجيال، ونذكر منها فى تراثنا العربى: حكاية "سد مأرب" و"يوم ساقط" الذى يشكل ملحمة بطلها "إمرؤ القيس". وفى تراث الإغريق "حرب طروادة" وعند البابليين "ملحمة جلجامش" Gligamesh[27] وسوف نتوقف قليلاً عند هذه الملحمة نظراً لأهميتها الأدبية والتاريخية، فهى بالفعل مثالاً أدبياً واضحاً وقوياً لاختلاط المادة التاريخية بالمادة الأسطورية فى عمل واحد.

والملحمة عمل تاريخى يمجد شخصية من أهم الشخصيات التاريخية فى بلاد ما بين النهرين. فالبطل "جلجامش" هو أحد ملوك مدينة "أوروك" Uruk (الوركاء) فى العصر السومرى، وليس شخصية أسطورية من صنع الخيال. فقد أثبت علماء الآثار أنه عاش وحكم حوالى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد (بين 2750 – 2600 ق.م) على نحو ما تؤكد الملحمة – فى اللوح الأول بوجه خاص من ألواحها الإثنى عشر – ويبدو أنه كان الملك الخامس فى ترتيب حكام هذه المدينة التى كانت من أهم المدن السومرية. وقد نسب إليه بناء سورها العظيم الذى أشارت إليه الملحمة فى بدايتها وخاتمتها بوصفه أحد أمجاده التى كفلت له نوعاً من الخلود المتاح للبشر الفانين. وهو بهذا يحتل مكانة مرموقة فى قائمة ملوك "سومر" ونذكر منهم: "مسكياج جاشر" وابنه "انمركر ولوجالنبدا" و"دموزى" ويسبقهم جميعاً "أتانا" الذى تولى عرش "سومر" فى البدايات الأولى [28].

ولقد تحول هؤلاء الملوك من شخصيات تاريخية إلى شخصيات أسطورية، خاصة أن بعضهم قد تم تحويله إلى إله فى عصور متأخرة؛ فاختلطت الأعمال الإنسانية بالسيرة الإلهية لهذه الشخصيات مما أثر – بلا شك – على الوضع التاريخى، وجعل من الصعب التعرف بسهولة على عصورهم التاريخية وعلى أعمالهم الواقعية الحقيقية [29].

إن غالبية الأعمال التى تنتسب إلى شخصيات وأبطال العالم القديم وُصِفَت أو وُضِعَت فى قالب أسطورى، فإذا ركزنا على مضمون هذه الأعمال ومقارنتها ببعضها البعض لتوصلنا إلى بعض التحديدات التاريخية والجغرافية لها، بصرف

النظر عن الإطار الأسطورى الذى وردت فيه، والذى يجب أن ننظر إليه على أنه يعبر عن طبيعة التفكير السائدة خلال عصور هذه الأعمال. إن الأعمال الإنسانية قد لا تختلف كثيراً من زمان إلى زمان أو من مكان إلى مكان آخر، ولكن الوسيلة التى يُعبر بها عن هذه الأعمال هى التى تختلف من عصر إلى عصر. وهذا أمر مرتبط بالأوضاع الفكرية والطبيعية السائدة خلال العصور الإنسانية المختلفة. ففى العصور القديمة كانت صلة الإنسان بالطبيعة قوية إلى الحد الذى يمكن النظر فيه إلى الإنسان على أنه جزء لا يتجزأ من الطبيعة. ومن هنا كان التعبير الفنى عن الأعمال الإنسانية هو التعبير السائد، وذلك عن طريق الرقص والغناء والنحت. . إلى غير ذلك من الأنشطة الإنسانية القديمة التى تحولت فى العصور المتأخرة إلى فنون علمية. وعندما سجل الإنسان القديم أعماله هذه سجلها شعراً، فالشعر لغة الطبيعة وربما يفسر هذا سبب وصول معظم النتاج الأدبى القديم إلينا فى شكل شعرى سواء فى الأسطورة أو الملحمة، أو غير ذلك من الأنواع الأدبية. وكلما تقدمنا فى التاريخ، وابتعد الإنسان عن الطبيعة وأصبح يعيش خارجها تتحول اللغة المستخدمة للتعبير عن الأنشطة الإنسانية من لغة شعرية طبيعية إلى لغة نثرية علمية. والسبب الرئيسى فى هذا التحول، هو تحول الإنسان بالتدريج من كائن طبيعى يعيش داخل الطبيعة إلى كائن علمى، خرج بالعقل على حدود الطبيعة، وسيطر بالعقل على الطبيعة التى أصبحت حقل تجارب لتطلعاته العقلية بعد أن كانت هى المسيطرة على حواسه ووجدانه عندما كان جزءاً منها .

وهكذا، نرى أن اختلاف وسيلة التعبير عند الإنسان، وتحولها من الوسيلة الشعرية إلى الوسيلة النثرية – أو بمعنى آخر تحولها من الشكل الأسطورى إلى الشكل التاريخى – لا يعنى أبداً أن الأنشطة الإنسانية القديمة لم تكن أنشطة حقيقية حينما عبر عنها بالشعر أو بالشكل الأسطورى، ولكن يجب أن تخضع الأساطير والملاحم للتحليل العلمى الدقيق من خلال المنهج التاريخى والأدبى المقارن الذى يساهم فى ترجمة اللغة الأسطورية القديمة إلى لغة الواقع العلمى [30].

❊ ❊ ❊ ❊

الأسطورة والمعتقد الدينى

إن الطابع السحرى للأسطورة وأثرها الفعال فى توصيل الأفكار المجردة وتثبيت المعتقدات، يفسر لنا تلك الوحدة المصيرية بين الدين والأسطورة. إن الدين فى أساسه الأعمق، اختيار "للمقدس" من خلال حالة انفعالية وجوانية سابقة على أى تصور عقلى. وهذه التجربة لا تخص فرد دون آخر أو فئة دون غيرها، بل يتعرض لها الجميع ولكن بدرجات متفاوتة من الشدة والوضوح، ويتعاملون معها بدرجات متفاوتة أيضاً من القبول والاعتراف. غير أن هذه الخبرة الدينية – من حيث الأساس – لا تبقى حبيسة، بل يجرى عادة تحويلها لتصب فى تيار عقيدة مؤسسة ومصاغة فى قوالب تنشأ حولها طقوس وأساطير تلعب دور المرشد والمنظم للخبرة الدينية. وتقوم الأسطورة بإضفاء الصفة الرمزية على هذه الخبرة وتعمل على إيضاحها من الخارج، ثم تأتى الطقوس لتلعب دور المطهر للانفعالات الدينية العميقة. عند هذا المستوى تتحول التجربة الانفعالية إلى صورة أو إلى مجموعة صور، ويتبلور المعتقد الدينى مع الأساطير التى تعيد تقديم الانفعال العميق داخل النفس إلى الوعى [31].

تنشأ الأسطورة إذن عن المعتقد الدينى وتكون بمثابة امتداد طبيعى له، فهى تعمل على توضيحه وإغنائه وتثبيته فى صيغ تساعد على حفظه وعلى تداوله بين الأجيال؛ كما أنها تزوده بذلك الجانب الخيالى الذى يربطه بالعواطف والانفعالات الإنسانية. ومن ناحية أخرى، فإن الأسطورة تعمل على تزويد فكرة الألوهية بألوان وظلال حية، لأنها ترسم للآلهة صورها التى يتخيلها الناس، وتعطيها أسماءها وصفاتها وألقابها؛ وتكتب لها سيرتها الذاتية وتاريخ حياتها كما تحدد صلاحيتها وعلاقات بعضها ببعض.

فالإله الأزلى القابع فيما وراء الزمان هو إله نظرى ذو طبيعة فلسفية، وهو لا يباشر وجوده الفعلى وصلته بعالم البشر إلا عندما يُعْلن عن فعاليته الواضحة فى الزمن ويقوم (أو يشارك) فى خلق وتكوين العالم، وهذا ما ترويه لنا الأساطير.

فالأسطورة تقوم على مفهوم زمانى لا مكانى – كما يقول الفيلسوف الألمانى "ارنست كاسيرر" E, Cassirer (1874-1945) [32]، ولذلك فإن الأسطورة الحقة لا تبدأ عندما تكون تلك الصور المحددة عن الآلهة، بل عندما نعزو لهذه الآلهة بداية محددة فى الزمن، وعندما تباشر هذه الآلهة فعالياتها وتعبر عن وجودها فى سياق زمنى، أى عندما يتحول الوعى الإنسانى من فكرة الآلوهية إلى تاريخها. فمن خلال هذا التاريخ الذى ترسمه الأسطورة يعلو الإله على قوى ومظاهر الطبيعة ويتسلط عليها، ومن خلال سيرته الذاتية – التى ترسم خروجه من العماء الساكن إلى الزمن المتحرك – تنتقل الألوهية من الوجود المجرد إلى الفعل الذى يظهرها فى عالم الإنسان ويربطها بمسار حياته [33].

❊ ❊ ❊ ❊

obeikandl.com

مراجع الفصل الثانى

(1) د. محمد مجدى الجزيرى، الفلسفة بين الأسطورة والتكنولوجيا، مطبعة العاصمة، القاهرة، 1985، ص ص 26 – 27.

(2) فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دراسات فى الميثولوجيا والديانات الشرقية، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 1997، ص ص14-15.

(3) د. أحمد كمال زكى، الأساطير، دراسة حضارية مقارنة، مكتبة الشباب، القاهرة، 1975، ص62.

(4) فراس السواح، المرجع السابق، ص15.

(5) المرجع السابق، ص16.

(6) د. محمد خليفة حسن أحمد، الأسطورة والتاريخ فى التراث الشرقى القديم، دراسة فى ملحمة جلجامش، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، 1988، ص23.

(7) هنا إشارة إلى اتهام المشركين للنبى باستلهامه قصص الأولين المكتوبة .
انظر فى ذلك: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، الجزء الأول، ص 18.

(8) انظر فراس السواح، دين الإنسان، ص56.
انظر أيضاً: د. مراد وهبة، المعجم الفلسفى، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998، ص ص61 – 62.

(9) Geores sorel, Reflections on violence, translated by T.E, Hulme and J, Roth, with an introduction by Edward A.Shils, the free press, Glencoe, Illinois, 1950, pp 48-49.

(10) "تموز" إله النباتات والخصب والشباب فى أساطير الشرق القديم، وهو باللغة السومرية (دموزى) و(تموز) بالأكادية. كما عُرف بهذا الاسم فى الروايات الآرامية وأسفار العهد القديم. و تموز يموت فى فصل الشتاء ويعود إلى الحياة فى فصل الربيع من كل عام.
انظر: د. إمام عبد الفتاح، معجم ديانات وأساطير العالم، مكتبة مدبولى، المجلد الثالث، ص295.

(11) "مردوخ" إله وبطل فى أساطير الشرق القديم (البابلية) وتروى أسطورة "مردوخ" ملحمة الخلق البابلية.
المرجع السابق، المجلد الثانى، ص382

(12) "بعل" فى أساطير الشرق الأدنى اسم للعديد من آلهة المطر والزراعة والخصوبة، وهناك كثرة من الآلهة تسمى "بعل" أو "بعليم" كما يسميهم الكتاب المقدس (العهد القديم).

المرجع السابق، المجلد الأول، ص161.

(13) فراس السواح، المرجع السابق، ص13.

(14) المرجع السابق، ص14.

(15) "انومااليش" ملحمة الخلق البابلية المسماة بهذا الاسم وتعنى :

"عندما فى الأعالى.. وهى افتتاحية الملحمة وتقول: "عندما فى الأعالى لم يكن هناك سماء.. وفى الأسفل لم يكن هناك أرض.. لم يكن ثمة شىء سوى الحياة الأولى التى كانت تعيش فيها "تيمات" تنين البحر أو أفعى الظلام، وقد قتلها البطل "مردوخ" ثم شقها نصفين، فانفتحت كالصدفة، فصنع السماء من نصفها الأعلى والأرض من نصفها الأسفل.

انظر: د. إمام عبد الفتاح، المرجع السابق، المجلد الثانى، ص382

(16) د. أحمد كمال زكى، المرجع سالف الذكر، ص46.

انظر أيضاً:

Snowden, Keighley, Watts, Myth and Legend in The Bible, London and Co 17 Johnson's Court, Fleet Street ES, 1915, p. 28.

(17) د. إمام عبد الفتاح، المرجع سالف الذكر، المجلد الثالث، ص76.

(18) د. أحمد كمال زكى، المرجع السابق، ص47.

انظر أيضاً S.H., Hooke, Middle Eastern Mythology, Penguine,1968.

(19) د. مصطفى غلوش، الأسطورة فى الفلسفة الإغريقية. دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، 1990، ص14.

(20) د. أحمد كمال زكى، المرجع السابق، ص ص 47 - 48 .

(21) فراس السواح، دين الإنسان، ص190.

(22) جيمس فريزر، الغصن الذهبى، الجزء الأول، ص171.

(23) انظر فى ذلك: فراس السواح، المرجع السابق، ص ص191-192.

ولمزيد من التفصيل انظر: برنسلاو مالينوفسكى، السحر والعلم والدين عند الشعوب البدائية، ص ص155 - 156.

(24) جيمس فريزر، المرجع السابق، ص172.

(25) فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص20.

انظر أيضاً: اليكس لوسيف، فلسفة الأسطورة، ترجمة د. منذر حلوم، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، 2000، ص83.

(26) د. أحمد كمال زكي، الأساطير، ص50.

انظر أيضاً: S. G, Oswalt, Greek and Roman Mythology, London, 1969.

(27) لمزيد من التفصيل انظر: د. إمام عبد الفتاح، معجم ديانات وأساطير العالم، المجلد الثاني، ص35.

انظر أيضاً: فراس السواح، جلجامش: ملحمة الرافدين الخالدة منشورات دار علاء الدين، دمشق، 1996.

(28) د. محمد خليفة حسن أحمد، الأسطورة والتاريخ، ص22.

(29) انظر بالتفصيل: توماس بلفينش، عصر الأساطير، ترجمة د. رشدي السيسي، مراجعة د. محمد صقر خفاجة، سلسلة الألف كتاب، دار النهضة العربية، القاهرة، 1966، ص411.

(30) د. محمد خليفة حسن أحمد، المرجع السابق، ص ص33 - 34.

(31) فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص24.

(32) انظر في ذلك، ارنست كاسيرر، في المعرفة التاريخية، ترجمة د. أحمد حمدي محمود، مراجعة على أدهم، دار النهضة العربية، القاهرة، ص134.

(33) فراس السواح، دين الإنسان، ص59.

* * * *

obeikandl.com